جدلية الفعل / البناء في تفسير السلوك الاجتماعي وأطروحة كل من بورديو وجيدنز في معالجتها

إعداد

محمد محمود عبد الرازق

المدرس المساعد بقسم علم الاجتماع

مقدمه

فكرة هذه الورقة وهدفها

مما لاشك فيه أن الإشكالية النظرية المتعلقة بمتصل (البناء–الفعل) أو (الفعل –البناء) أصبحت تشغل اهتمام عدد غير قليل من الباحثين والدارسين والمتخصصين في مجال النظرية الاجتماعية .

فهذه الإشكالية تطرح العديد من الاسئله المتعلقة بالمرتكزات التي تتبناها كل نظرية في علم الاجتماع كإطار لتفسير الواقع الاجتماعي , فهل تركز علي البناء الاجتماعي الكلي أم تركز علي الفرد ؟ فعلي سبيل المثال لا الحصر نجد أن الاتجاهات الكلاسيكية في علم الاجتماع علي اختلاف توجهاتها أولت اهتماما كبيرا بالبناء في مقابل الفرد أو الفعل، فالبنائية الوظيفية (ومن خلال عدد من العلماء) أكدت علي أهمية البناء الاجتماعي والدور الذي يلعبه في حياة الفرد , وذهب دوركايم إلي وضع خصائص للظواهر الاجتماعية أهمها أنها خارجية عن الفرد وتمارس عليه الجبر والإلزام من خلال الأطر والقواعد التي يرتضيها المجتمع الذي يعد اكبر من مجموع أجزائه ويمارس بالطبع سلطة ملزمة على كل أفراده . وعلي الطرف الآخر من البنائية الوظيفية نجد أن المادية التاريخية (من خلال ما قدمه كارل ماركس) أيضا أعطت أهميه كبيره للبناء الاجتماعي ودوره في حياة وممارسات الفرد، فمن وجهة نظر ماركس أن الأبنية الاقتصادية الرأسمالية تولد حالة من الصراع الطبقي في المجتمع وتنعكس هذه الحالة علي أفراد المجتمع فيما أطلق عليه الاغتراب عن كل الأشياء من حولهم .

وفي مقابل هذه الاتجاهات النظرية الكبرى ظهرت اتجاهات تؤكد علي أهمية الفرد الفاعل كعنصر رئيسي لتفسير الواقع الاجتماعي متبنية رؤية مؤداها أن المجتمع ما هو إلا مجموع أفراده ويتألف من خلال الأفعال الفردية العديدة لهؤلاء الأفراد الذين يقع عليهم الدور الأكبر في تشكيل هذا المجتمع .

وتحاول هذه الورقة طرح رؤية ثالثة اتخذت من ثنائية (الفعل –البناء) طريقا لتفسير الواقع الاجتماعي وذلك من خلال عرض نظريتي الممارسة لبيير بورديو والتشكيل البنائي لأنتوني جيدنز , فكلاهما كان لديه اتجاه نحو ضرورة الجمع بين الفعل

والبناء كآلية لتفسير الواقع الاجتماعي، ولكن كل علي طريقته الخاصة. *وفيما يلي يحاول الباحث* أن يطرح فكرة الفعل والبناء علي مستوي نظريات علم الاجتماع بشكل عام ثم يركز علي طرح نظريتي الممارسة ، والتشكيل البنائي لكل من بورديو وجيديز علي الترتيب كمحاولة لطرح نقاط الاتفاق والاختلاف بينهما وخصوصا وكما سلف الذكر – أن كلا منهما ركز علي ثنائية الفعل – البناء كآلية للتفسير

ب

نظرية علم الاجتماع بين الفعل والبناء :

يكشف تحليل الترث السوسيولوجي لعلم الاجتماع والعلوم الاجتماعية عامة ، عن مدي أهمية دراسة النظرية كموجه أساسي لجميع الجهود النظرية والميدانية للعاملين في هذه العلوم وفروعها المختلفة . وهذا ما ظهر بالفعل خلال العقود الأخيرة من القرن الماضي حيث أهتم بدراسة النظرية الاجتماعية (السوسيولوجية) الكثير من المتخصصين في علم الاجتماع ومن يطلق عليهم بالمنظرين لهذا العلم خاصة وأنهم سعوا للكشف عن مضمون النظرية وكيفية تطورها ونشأتها الأولي إلي أن وصلت الى ما هو عليه خلال السنوات الأخيرة .

فمنذ أن وضع العالم الفرنسي " أوجست كونت " القواعد الأساسية التي يقوم عليها علم الاجتماع بإعتباره علماً وضعياً يهتم بدراسة وتحليل الواقع المتغير للحياة الاجتماعية والظواهر والمشكلات التي لازمت ظهور المجتمع الصناعي الحديث نجد أن مهمة هذا العلم تتركز في عدة نقاط أو مهام أساسية تجعل من علم الاجتماع علماً له مكانة متميزة بين العلوم الاجتماعية (وهذا بالفعل ما يتعرف عليه الطلاب والدارسون والباحثون المتخصصون في هذا العلم علي حد سواء) . وبالطبع ، إن ظهور النظرية السوسيولوجية أو بالتحديد النظرية الموجهة لعلم الاجتماع ككل والتي تبلورت بصورة مميزة بعد تعدد فروع هذا العلم وتنوع قضاياه ومشكلاته الأساسية والتي تزداد يوماً بعد يوم ،لا يمكن أن تنفصل عن نشأة علم الاجتماع ذاته خاصة وأن أي علم متميز لابد وأن تتوافر فيه الخصائص والسمات والشروط اللازمة لقيام هذا العلم ، وهذا ما يتلبور في أهمية وجود نظرية علمية مميزة ومتكاملة الخصائص والسمات والتي يطلق عليها مصطلح النظرية العلمية (1).

لقد ارتبطت نشأة علم الاجتماع كتخصص بفكرة (بناء) المجتمع نفسه (في مقابل السلوك الفردي والتفاعل بين الأشخاص في المستويات الصغري) وكان ذلك إلي حد كبير يمثل المشروع الأوربي منذ البداية علي الرغم من تنوع التأثيرات في مختلف البلدان ، وفي المقابل فإن التوجهات المبكرة لعلم الاجتماع الأمريكي أعطت ميلاً وتركيزاً علي مستوي الوحدات الصغري ، علي الرغم من تأثرها منذ البداية بالرواد الأوروبيين ، إلا أنه

وفي نهاية المطاف أصبح التركيز علي (الكل) مهيمناً علي علم الاجتماعي الأمريكي أيضاً [2] .

لقد كانت النظريات المهيمنة في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين هي نظريات كونت ، سبنسر ، دوركايم ، فيبر، وزيمل ولقد ظهرت هذه النظريات استجابة إلي حد كبير للأحداث التي أعقبت الثورات الأمريكية والفرنسية والصناعية وقد شملت النظريات المهيمنة في ذلك الوقت الوضعية التي يؤمن أنصارها بالدراسة العلمية للمجتمع كهدف في حد ذاته إلي جانب الإلتزام بالموضوعية . ويري هذا الفريق من علماء الاجتماع – خاصة دوركايم – أن الظواهر الاجتماعية ليست قابلة للاختزال إلي البيولوجيا أو علم النفس ومن النظريات الأخري في القرن التاسع عشر الوظيفية التي تساوي بين المجتمع والكائنات العضوية مع تقسيم للعمل يتحدد بالوظائف التي تؤديها أجزاء الكائن العضوي (المجتمع) ، وثمة عامل مجتمعى أسهم في تشكيل نظرية القرن التاسع عشر هو اتساع نطاق وشرعية السلطة " الرشيدة – القانونية " أو السلطة البيروقراطية مما ترتب عليه تزايد قوة الدول القومية والمؤسسات . وينظر إلى هذه التطورات بوصفها تطورات إيجابية أو مؤشراً علي التقدم [3].

ومن منظور وضعي ووفقاً " لكونت " فإن هدف علم الاجتماع هو إكتشاف القوانين الاجتماعية التي يمكن استخدامها في دراسة ومعالجة ومناقشة الظواهر والمشكلات والقضايا الواقعية ، علاوة علي ذلك جاءت بعض كتابات " كونت " لتتوج إسهاماته النظرية في علم الاجتماع وخاصة ما أهتم به في تحليلاته عن الوضعية والذي نشر عام 1855 وحاول فيه أن يوضح علاقة النظرية بالمنهج الوضعي العلمي ، الذي أقترحه أساساً لعلم الاجتماع وليكون مناظراً للمنهج العلمي في العلوم الطبيعية [4] .

ويري بعض المحللين للنظرية السوسيولوجية إن إسهامات " سبنسر " في النظرية السوسيولوجية تعد من الإسهامات التي طورت عموماً التحليلات السوسيولوجية النظرية والمنهجية في نفس الوقت، ولاسيما أن الوضوح الفكري والأيديولوجي كان مميزاً في أفكار وتصورات " سبنسر " والتي تبني فيما الطابع المحافظ ، الذي تزعم أهمية إعادة تنظيم المجتمع وبناءاته ونظمه ومؤسساته بعد عملية التفكيك التى أصابته من كافة الجوانب

وهذا ما يجعل أفكار" سبنسر " تتلاقي كلية مع أفكار رواد النظرية السوسيولوجية التقليدية وخاصة "كونت " بالإضافة إلي أن تصورات " سبنسر " للنظرية السوسيولوجية تبنت أيضاً التحليلات النقدية الراديكالية التي انتقد فيها الكثير من السياسات الحكومية الداخلية والخارجية ولاسيما تحليلاته عن الديمقراطية وعلاقة الفرد بالدولة [5] .

وبالإضافة إلي " سبنسر " نجد أن " دوركايم " وبصفة خاصة كان من أكثر علماء الاجتماع تأثيراً في تطور الوظيفية وذلك لأنه كان يري أن النظم الاجتماعية توجد فقط من أجل إشباع حاجات اجتماعية معينة فكل الأنساق الأخلاقية تشكل – علي حد تعبيره – وظيفة للتنظيم الاجتماعي وفي كتابه " قواعد المنهج في علم الاجتماع " يقرر دوركايم صراحة أن وظيفة الواقعة الاجتماعية وظيفة اجتماعية لأنها تؤدي بالضرورة إلي نتائج مفيدة اجتماعياً ويقول " ولكي يمكن تفسير الظاهرة الاجتماعية علينا أن نبحث عن السبب الكافي الذي أوجدها والوظيفة التي تحققها كل علي حدة " ويرتبط السبب والوظيفة – عند دوركايم – بأهداف وغايات معينة وبخاصة الأهداف التي تعني بالتضامن الاجتماعي والمحافظة علي المجتمع ككل عضوي. وتحاول الوظيفية الشمولية – كما صاغها دوركايم – تفسير الوقائع لا من خلال التركيز علي السبب الذي تعتمد عليه الوقائع الاجتماعية فقط بل بتوضيح وظائفها في " تأسيس التناغم والانسجام العام وتدعيمه " [6] .

لقد آثار التحليل الوظيفي مجموعة من التساؤلات مثل : ما الذي يقوم به المجتمع ؟ ما هي الاحتياجات التي يشبعها ؟ ما هو غرض المجتمع ؟ كيف يقوم المجتمع بأداء وظائفه ؟ ما هي الوظائف التي ينجزها ؟

أما القضية الأعم التي تثار من خلال هذه الأسئلة فهي تتصل بتكامل المجتمع بواسطة الاجماع أو الاتفاق علي تلبية الاحتياجات. وعلي الرغم من ظهور قضايا مثل النظام ، التكامل، البناء والوظيفة في أعمال هربرت سبنسر ، وإميل دوركايم في القرن التاسع عشر ، إلا أن هذه القضايا عولجت بشكل ناضج ومكتمل عند كل من تالكوت بارسونز وروبرت ميرتون وهما شخصيتان محوريتان في علم الاجتماع الأمريكي ونظرية علم الاجتماع خلال الثلث الأوسط من القرن العشرين [7] .

ويمكن أن نلاحظ بداية التوسع في نظرية الفعل الاجتماعي عند بارسونز في مقالته المنشورة عام 1945 م التي يقر فيها بأن " بناء الأنساق الاجتماعية لا يمكن اشتقاقه اشتقاقاً من الإطار المرجعي لموقف الفاعل . وتستوجب هذه النظرية تحليلاً وظيفياً للمصاعب الناجمة عن تفاعل مجموعة من الفاعلين، وبذلك لا يحدث الفعل الاجتماعي بين الفاعلين فقط، ولكنه يحدث أيضاً داخل النسق الاجتماعي .

والنسق – في نظرية بارسونز – وحدة مركبة متجانسة ذات حدود ترتبط بداخلها الأجزاء . وتحدث الأشياء ويميز بارسونز بين ثلاثة أنساق : النسق الثقافي ، نسق الشخصية والنسق الاجتماعي . (8)

وعلي عكس بارسونز – في صياغته لنظرية شاملة – وهي الفعل الاجتماعي ، رأي ميرتون أن النظرية في علم الاجتماع يجب أن تكون متوسطة المدي. ولقد عرفها بأنها هي تلك التي تقع بين طرفين : الطرف الأول يتمثل في مجموعة من التعميمات العلمية البسيطة التي تقابلها عند إجراء البحوث الميدانية، والطرف الثاني يتمثل في النظريات الشاملة الموحدة والتي تسعي لتفسير كل ملاحظة في انتظام السلوك الاجتماعي والتنظيم الاجتماعي .

وبعبارة أخري فإن ميرتون إقترح مستوي للنظرية في علم الاجتماع أعلي قليلاً من مستوي الإستنتاجات المستمدة مباشرة من الواقع والتي لا تتضمن قدراً يذكر من التجريد ، ولكنه أقل قليلاً من النظريات الكبري التي تتضمن قدراً كبيراً من التجريد (9).

وعلي الطرف الثاني من الاتجاه البنائي الوظيفي – ومن منظور بنائي أيضا – نجد ما يسمي بالاتجاه الماركسي (الصراع) ، والذي يعد كارل ماركس من أبرز مؤسسيه. وتعتبر النظرية الماركسية الطبقات الاجتماعية ذات مركب عام ونوعي حيث يشير مفهوم المركب العام ، إلي أن التناقضات الداخلية التي تظهر في المجتمعات إنما تنجم أساساً من تأثير علاقات الإنتاج علي حياة الناس والجماعات الاجتماعية المختلفة التي تكون في مجموعها الطبقات الأساسية في المجتمع ، وتؤثر علي أسلوب حياتها وطريقة تفاعلها مع بعضها البعض ، في حين يشير "النوعى" إلي المجتمعات ذات النظام الاقتصادي الرأسمالي القائم علي ملكية موضوعات

– وادوات الإنتاج. وفي هذا يؤكد ماركس علي قيام المجتمع الرأسمالي علي الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج وأدواته[10].

لقد نظرت الماركسية للمجتمع علي أنه يتكون من طبقات متصارعة منذ انتهاء المشاعية البدائية وحتي وقتنا الحاضر . وفسر ماركس التاريخ الإنساني علي أنه صراع دائم بين الطبقات. فالمجتمع من وجهة النظر الماركسية " هو نتاج عمل الناس المتشابه " والتركيب الإقتصادي للمجتمع هو الأساس الحقيقي الذي تقام عليه الصروح القضائية والبنيان السياسي ، أي أن أسلوب الإنتاج هو الذي يقرر الطابع الاجتماعي والسياسي والفكري بوجه عام للحياة .

لقد استند المجتمع من وجهة نظر ماركس علي نوعين من الفهم :

الأول : الفهم التاريخي من خلال المادية التاريخية .

الثاني : الفهم الاقتصادي من حيث أن الإقتصاد هو أساس المجتمع وأن كل الظواهر الأخري عبارة عن تركيبات فوقية . [11]

وفى مقابل البنائية الوظيفية من ناحية والمادية التاريخية من الناحية الثانية ثمة اتجاه ثالث ساهم بشكل كبير في تطور النظرية الاجتماعية ألا وهو التفاعلية الرمزية والتي تسعي كنظرية سوسيولوجية لدراسة دور الفرد وسلوكه في المجتمع داخل الجماعة التي ينتمي إليها مع الاهتمام بمكون عملية التفاعل والتبادل الذي يحدث بين الفرد وذاته أو بيئته أو بين الجماعة والمجتمع الذي يعيش فيه . ومن ثم فالتفاعلية الرمزية تركز علي الفرد أساساً كغيرها من النزعات النفسية الاجتماعية كما تسعي لتحليل نسق الرموز والمعاني التي تترجم في السلوك الفردي والدور الوظيفي والسيكولوجي الذي يقوم علي الفرد في المجتمع . في نفس الوقت ، تحرص التفاعلية الرمزية علي دراسة المظاهر الرمزية للتفاعل ومركب العلاقة المتبادلة بين الفرد والمجتمع وكيفية تنظيم هذه العلاقة ولاسيما من قبل الفرد في إطار وإسلوب عقلانى يعكس العوامل (الذاتية) للفرد واستجابته للمواقف والعمليات الاجتماعية [12] .

وأضافه إلى النظرية التفاعلية الرمزية المنحازة لدور الفرد أو الفعل ظهرت بعض الاتجاهات التي تعلي من شأن الذات الفاعلة في مقابل البناء الاجتماعي مثل الاتجاه

الاثنومثودولوجي. وتجمع معظم الكتابات التي تناولت هذه الاتجاه علي أنه ظهر في الستينات من القرن العشرين وذلك مع نشر كتاب جارفينكل بعنوان " دراسات في الأثنوميثودولوجي " ويعني هذا الاتجاه بدراسة الطرق أو الوسائل والإجراءات التي يستخدمها أعضاء المجتمع في توضيح معني عالمهم الاجتماعي الذي يعيشون فيه، وفيما يقومون به من أنشطة مألوفة وأخري غير مألوفة .

وينظر أنصار الأثنوميثودولوجي إلي المجتمع علي أنه له وجود قائم. ومن ثم فإنهم يستبدلون مصطلح الفاعل عند التفاعليين الرمزيين بمصطلح العضوية وفي ذلك تأكيد علي وجهة نظر الأعضاء للواقع الاجتماعي . كما أن البعض يعتبر هذا الاتجاه بمثابة إطار مرجعي بديل عن البنائية الوظيفية حيث أنه يعتبر أن ممارسة الحياة اليومية من خلال الوسائل التي يشيدَّ بها الفاعلون عالمهم وواقعهم الاجتماعي أمراً مشكلاً وذلك علي عكس الوظيفية التي تسلم بها علي أنها أمراً معطي [13] .

ويبالغ البعض في الأفراط في النزعة الفردية في علم الاجتماع إلي حد القول بأن تفسير ظاهرة معينة يعني وجوب الأخذ بنظر الاعتبار أنها دائماً نتيجة للأفعال الفردية وأن هذه الأفعال هي المواقف والآراء والسلوكيات .

ويعني مبدأ الفردية وفق " ديمون بودون " أنه علي عالم الاجتماع أن يقيم قاعدة منهجية لاعتبار الأفراد الفاعلين الفرديين المنتمين إلي نظام تفاعل كذرات منطقية في تحليله ولا يمكن لعالم الاجتماع أن يكون مقنعا او مقتنعاً بنظرية تدرس تجمعاً (طبقة ، جماعة ، أمة) باعتباره الوحدة الأساسية التي تهبط إليها النظرية أو يكون مقتنعاً بجهد يقوم به لتحليل ردود أفعال الأفراد حيال القيود التي يفرضها (النسق) أي أن هذه القاعدة المنهجية تبني علي أساس اعتبار الأفراد المسئولون المباشرون عما يطرأ من ظواهر اجتماعية داخل الأنظمة [14] .

وعلى مستوى أثر حداثة يري البعض ضرورة وجود توازن بين النزعة الذاتية والنزعة الموضوعية في نظرية علم الاجتماع مثل " **أنتوني جيدنز** " ونظريته في التشكيل البنائي والتي صاغها في عام 1976 وطرحها ضمن كتاب بعنوان (دستور المجتمع) في محاولة لردم الهوة بين نظرية الفعل الاجتماعي / البناء، والذاتية/ الموضوعية ، والنماذج التحليلية الصغرى /

الكبرى أو لتحقيق التكامل ما بين الاهتمامات الصغري والكبرى . تأتي نظرية جيدنز في محاولة للإجابة علي السؤال القديم حول ما إذا كان الأفراد أم القوي الاجتماعية هي التي تشكل الواقع الاجتماعي من خلال تبني موقف معتدل من هذا الجدل ، بالقول بأنه علي الرغم من كون الأفراد لا يمتلكون الحرية الكاملة في اختيار أفعالهم وكون معرفتهم محدودة إلا أنهم هم الذين يعيدون إنتاج البني الاجتماعية وبالتالي يصنعون التغير الاجتماعي [15] .

وفي نفس هذا الاتجاه يحاول "**بيير بورديو** " تأسيس نظريته حول الممارسة ارتباطا بثنائية الفعل– البناء من خلال التأكيد على كل من العوامل الموضوعية والذاتيه معا فى عملية التفسير وعدم إعطاء أهمية لاحدها على حساب الآخرى ويحاول الباحث من خلال العرض التالى إلقاء الضوء على الملامح الرئيسية لنظريتى الممارسة والتشكيل البنائى عند كل من بورديو وجيدنز على الترتيب .

نظرية الممارسة عند بيير بورديو :

تتأسس نظرية الممارسة عند بورديو علي ثلاثة مفاهيم رئيسية : الهابيتوس ، المجال بالإضافة إلي رأس المال، والتفاعل بين هذه المفاهيم من شأنه توليد عمليات الممارسة وفقاً لبورديو. لقد إستخدم بورديو مصطلح الهابيتوس (والذي يعد نظام من الاستعدادات القابلة للتحول والنقل ويشير إلى توجهات الأفراد نحو العالم ويعطى مساحة للفعل والمشاركة) للإشارة

إلي جوانب اللاوعي أو بشكل أكثر تحديداً عملية تضمين البناءات المجتمعية. فالهابيتوس يعكس موقف فرد أو مجموعة من الأفراد داخل البنية الطبقية وفي نفس الوقت يشير إلي الممارسة الجماعية والفردية التي شكلتها مواقف الفرد أو الجماعة في الفضاء الاجتماعي وبالتالي يجسد الهابيتوس " العلاقة السببية الغير مباشرة بين الوضع داخل الفضاء الاجتماعي والممارسات "، ومن ثم لا يشير فقط للاتجاهات والمعتقدات والمفاهيم الذاتية ولكن أيضاً للفعل الفردي والجمعي ، حيث يري بورديو وجود إرتباط وثيق بينهما .

ويحاول بورديو شرح الكيفية التي يتحول بها " الخارجي " إلي " داخلي " حيث تحدث عن " دمج البناءات الموضوعية في الفضاء الاجتماعي " (بورديو ، تومسون ، 1991) ، ويحدث ذلك بشكل كبير علي مستوي لا واعي حيث أن البناءات الاجتماعية في العادة لا يمكن تحليلها بوعي ودقة متناهية من قبل الفرد. ويشير بورديو هنا إلي فكرة جوفمان (1951) حول " إحساس الفرد بالمكانة " و " السيادة الفعلية للبناء الاجتماعي " هذه السيادة التي لا تكتسب في الغالب من خلال الفعل الانعكاسي أو الدراسة ولكن عن طريق الخبرة . فخبرات الفرد نفسه في البناء الاجتماعي ، وعلاقات القوة هي التي تقود إحساسه بما حوله
(المكان) .

إن الصلة بين الوضع والإستعدادات يعُد أمراً بالغ الأهمية في هذا السياق. فالوضع في علاقات القوة يرتبط بإستعدادات محددة متعلقة بالهابيتوس. وموقع القوة يرتبط بشكل وثيق بأوضاع الحياة العامة. لذلك يري بورديو وجود صلة قوية بين وضع الفرد (في الفضاء الاجتماعي) واستعداداته "الهابيتوس". ويطلعنا الهابيتوس أيضاً علي الممارسة الفردية والجماعية حيث ينظر بورديو للممارسة بأنها لا تعتمد علي النزعة الموضوعية فقط ، حيث يفهم الفعل علي أنه مجرد (إنعكاس للظروف) ولا علي النزعة الذاتية فقط (التي تؤكد علي وجود نية وقصد واع دون وساطة) (بورديو وكونت ، 1991) [16] .

لقد وظف بورديو الهابيتوس علي أنه شيئ مؤكد هام ومفهوم مؤثر لفهم العلاقة بين البناء والفاعل في سياق الممارسة ، حيث ارتبط مفهوم الهابيتوس عند بورديو بدراسة المجالات

الاجتماعية أكثر من كونه مفهوماً يقدم تفسيراً للتعقيدات التي تشكل شخصية الفاعل. وعلي ذلك يصبح الهابيتوس أداة مفاهيمية في المقام الأول لشرح وتفسير الأفعال داخل المجال الاجتماعي ، حيث يوجد تفاعل دينامي من الصراعات والتنافسات التي تنتج التاريخ . ***ويعرف بورديو الهابيتوس علي أنه*** " نظام من الإستعدادات الدائمة القابلة للتحول والهياكل المنظمة والمبادئ التي تولد وتنظم الممارسات والتصورات التي يمكن أن تتكيف بشكل موضوعي مع مخرجاتها دون إفتراضات مسبقة واعية للنهايات، أو تأكد صريح من العمليات اللازمة لتحقيقها " .

ويشير هذا التعريف الخصب إلي أنه بدلاً من العوامل الميكانيكية التي يتم إنتاجها من خلال منطق صارم للبناء الاجتماعي فإن الهابيتوس يعُد مبدأ توليدي داخل الفاعلين يعمل بشكل إستراتيجي وفقاً للحالة ، وفي نفس الوقت يمثل الهابيتوس إستيعابا للقوي الاجتماعية مثل " طبقة الهابيتوس " الناجمة عن ظروف متجانسة نسبياً في وجود جماعة محددة وهذا الاستيعاب يشكل الاستعدادات الدائمة القابلة للتحول ، والتي تعمل في مختلف مجالات الممارسة لدي الفاعلين. ويتكامل مفهوم الهابيتوس مع ما يطلق عليه بورديو " إقتصاد الممارسات " والذي يتضمن " رأس المال " والذي يعمل بفاعلية داخل " المجالات (بورديو ، 1990). وإقتصاد الممارسات[هذا وفقاً لتعبير بورديو] ممارسة الأنسب لتحقيق الأهداف المنصوص عليها من خلال منطق مجال بعينه وبأقل تكلفة . (17)

ويعتبر البعض الهابيتوس مفهوماً مركزياً في علم اجتماع بورديو حيث يؤكد بورديو من خلاله على الدور النشط للفاعل الاجتماعي في بناء الحقيقة الاجتماعية. وبواسطة الهابيتوس يفهم بودريو مجموعة من مخططات الإدراك ، التفكير ، الشعور ، التقييم ، التحدث والتصرف والتي تُشكل كل التعبيرات ذات الدلالة للشخص سواء كانت لفظية أو عملية ، علي غرار القواعد النحوية في اللغة. أنه نظام من الإستعدادات المنتجة تاريخياً حيث ، يتم إنتاج الممارسات وفقاً لمخططات ولدها التاريخ. ويُعبر الهابيتوس عن نظام دائم ولكنه يتطور ويتم ضبطه وفقاً للسياق الحالي ويتم تعزيزه عن طريق المزيد من الخبرة ، فهو " يوضح المنطق المميز للفعل

الاجتماعي " (وكونت 2011) .ومن خلال الهابيتوس يري بورديو أن هناك ميلاً للتصرف دائماً بنفس الطريقة في الحالات المماثلة ، لذلك يمكن فهم الهابيتوس علي أنه نوع من الرابط العقلي النفسي. ويكتسب الهابيتوس من خلال عمليات التنشئة الاجتماعية الأولية والثانوية ، فمن خلال عمليات التنشئة الاجتماعية الأولية والتي تأتي من الأسرة خلال مرحلة ينتج الهابيتوس الأساسى والذي يعتبر مستقراً . فمخططات الفعل والإدراك التي تم نقلها خلال مرحلة الطفولة تعُد بمثابة التعليم والذي يرتبط بالوضع الاجتماعي للوالدين في الفضاء الاجتماعي ، لذلك فإن الهابيتوس الأساسي هو " استدماج الخارجي كأسلوب الوالدين في التفكير ، الشعور والتصرف والذي يرتبط بموقعهم في الفضاء الاجتماعي " وهذا ما أطلق عليه بورديو طبقة الهابيتوس ، والتي تعكس مختلف " مواقع " الناس في المجتمع وتؤدي إلي أنماط الحياة المختلفة من حيث الأذواق والإهتمامات بين الطبقات الاجتماعية. أما الهابيتوس الثانوي ، فهو مبني علي الهابيتوس الأساسي أو الاوليّ وهو ينتج عن التعليم في المدرسة والجامعة بالإضافة إلي الخبرات الحياتية. وهنا يتجسد التاريخ حيث لا يفتقد تأثيره علي الهابيتوس الثانوي. وفي هذا الصدد يمكن إختزال الهابيتوس الأولي والثانوي في هابيتوس واحد فقط يتم تعزيزه بإستمرار وتعديله وفقاً للخبرات الحياتية والتي تعطيه جودة دينامية. وبوصفه نتاجاً لخبراتنا الحياتية والحالية يُصور الهابيتوس علي أنه عملية لا نهائية من إعادة الهيكلة داخل البناء ، ووفقاً لبورديو يعُد الهابيتوس " المبدأ الرئيسي لتوليد الإستراتيجية والذي يمكن الفاعلين من التعامل مع الحالات الطارئة والمتغيرة بشكل مستمر " لذا يقال أن الهابيتوس هو الذي يوجه إستراتيجيتنا نحو (الممارسة) والتي تهدف إلي تحقيق الأهداف من خلال الإستثمار في أنواع وكميات مناسبة من رأس المال داخل المجال الاجتماعي [18] .

وتبدو" الحقول" للإدراك المتزامن عبارة عن فضاءات مركبة من مواقع (أو مناصب) تعتمد خصائصها علي موقعها داخل هذه الفضاءات ، ويمكن أن تحُلل بمعزل عن سمات شاغليها (التي تحدها هذه الخصائص) فبعض المتغيرات علي سبيل المثال تجعل آليات نوعية مثل الصراع بين الطامحين إلي المنصب والمهيمنين تأخذ أشكالاً مختلفة ، لكننا نعرف أننا

سنجد صراعاً في كل حقل (و يتعين علينا في كل مرة أن نبحث عن أشكاله الخاصة) بين الداخل الجديد الذي يحاول أن يكسر أقفال حق الدخول والمهيمن الذي يحاول أن يُدافع عن احتكاره ويبعُد عنه المنافسة .

ومن أجل أن تسير الأمور في مجال أو حقل ما يجب أن تكون هناك تحديات وأشخاص مستعدون لممارسة اللعبة ويملكون المتصل الوراثي الذي يستوجب المعرفة بالقوانين الخاصة باللعبة وبالتحديات والإقرار بها وما إلي ذلك. إن بنية المجال أو الحقل هي حالة صراع القوي بين الفاعلين أو بين المؤسسات الداخلة في الصراع أو إذا شئنا توزيع رأس المال الخاص الذي تراكم أثناء الصراعات السابقة والذي يوجه الإستراتيجيات اللاحقة ، باختصار الاحتفاظ ببنية توزيع رأس المال الخاص أو هدمها هو التحدي الذي يسمي الصراعات التي تحدث في الحقل (الحديث عن رأس مال خاص يعني أن قيمة رأس المال متصلة بحقل معين ، ومن ثم في حدود هذا الحقل وهو غير قابل للتحول إلي نوع آخر من رأس المال إلا تحت شروط معينة). وفي حالة صراع قوي معينة يميل أولئك الذين يحتكرون (كلياً تقريباً) رأس المال الخاص أساس القوة أو السلطة الخاصة المميزة لحقل ما ، إلي إستراتيجيات محافظة ، في حين يميل أولئك الذين لا يملكون رأس المال (وهم في الغالب القادمون الجدد وفي أغلب الأحيان الأكثر شباباً) إلي إستراتيجيات هدم. وثمة سمة أخري أقل وضوحاً لحقل ما ، فجميع الأشخاص الملتزمين بحقل ما لهم عدد من المصالح الأساسية بمعني كل ما له علاقة بوجود الحقل نفسه. من هنا ينشأ تواطؤ موضوعي ضمني في جميع الخصومات. أن أولئك الذين يُشاركون في الصراع يُسهمون من خلال مشاركتهم في الأغلب علي نحو تام بحسب الحقول في إعادة إنتاج اللعبة وفي إنتاج الإيمان بقيمة التحديات [19] .

لقد أنتج بورديو مصطلح " الهابيتوس " والذي يعبر كما سفا الذكر عن نسق من الاستعدادات الدائمة والخصائص التي تمكن الفاعلين من الفهم والتفسير والممارسات المدركة حسياً كالمكتسبة والتلقائية بالإضافة إلي الاتجاهات الدائمة من الاستعدادات والتي تندمج داخل الجسد ، حيث يساعد الهابيتوس الفاعلين علي التنظيم والتكيف بشكل واسع مع مختلف السياقات والظروف [20] .

وهنا تتضح العلاقة بين الهابيتوس والحقل في نظرية بورديو حول الممارسة فعلي الرغم من أن كلا البعدين (وبشكل رئيسي) يشير إلي الفاعل الاجتماعي ولنفس السبب إلي تفسير الممارسات الاجتماعية فإنه من الضروري إيضاً أن يُؤخذ في الاعتبار العلاقة بين الموقع والهابيتوس ، البني الاجتماعية والعقلية وحيث أن هناك مقاربة بين الأبنية الاجتماعية والأبنية العقلية ولكن كيف يمكن تصور هذه المقاربة ؟

إن العلاقة بين الهابيتوس والظروف الموضوعية تعُد هي الحاسمة في مشروع بورديو النظري لشرح الممارسات ووضع تصور للتغير وآلياته.وعلي ذلك فإن هدف العلوم الاجتماعية ليس الفرد أو الجماعات ككيان ملموس ومدرك مكون من مجموعة أفراد (ربما يتشاركون في أهتمامات واحدة) ولكن في العلاقة بين الإثنين وهى العلاقة المدركة من خلال العمل التاريخي ، وبعبارة أخري العلاقة المزدوجة بين الهابيتوس والمجالات. وقبل أي شئ فإن العلاقة بين الهابيتوس والحقل علاقة تكيف : فالحقل يبني الهابيتوس والذي ينتج من خلال عملية الإندماج الجوهرية في هذا الحقل و مجموعة قليلة أو كثيرة من الحقول المتطابقة وهي أيضاً علاقة معرفة أو بناء معرفي : حيث يساهم الهابيتوس في تشكيل الحقل كعالم كبير مُحمل بالمعاني والقيم [21].

لقد أصبح شيئاً أساسياً أن يرى المجال أو الحقل الاجتماعي (كالملعب) الذى تطبق فيه قواعد بعينها حيث يحتاج الفاعلون إلى أن يزودوا بكمية محددة وبناء من الموارد التى يمكن وضعها على المحك من أجل الحصول على حق الدخول إلى الحقل الاجتماعى وكل حقل يحتاج إلى نوعيه محددة من الموارد (بورديو ، وكونت 1992) وهى ما أطلق عليها بورديو "رأس المال" ويميز بورديو بين أربعة أشكال من رأس المال ، الإقتصادى ، الثقافى ، الاجتماعى ورأس المال الرمزى والتى تعباً من جانب الفاعلين للدخول والتحرك فى المجال الاجتماعى ، وعلى الرغم من أن هذه الأشكال من رأس المال تظهر على أنها متمايزة فى الواقع إلا أنها مرتبطة بشكل وثيق جداً مع بعضها البعض بالإضافة إلى أنها قابلة للتحول. وفى هذا الصدد يمكن لنوع واحد من رأس المال أن يكون بمثابه العمله التى يتم تداولها على حساب العملات الأخرى حيث يفترض وجود سوق لهذه الأشكال من رأس المال.

ويرتبط (رأس المال الأقتصادى ، بثروة الشخص وإيراداته والتى يمكن تحويلها مباشرة إلى المال أو إضفاء الطابع المؤسسى عليها من خلال حقوق الملكيه. ويمكن تحويل هذا النوع من رأس المال بسهوله إلى الأنواع الأخرى من رأس المال، على سبيل المثال عند شراء كتاب يتحول رأس المال الاقتصادي إلى رأس مال ثقافى ، و ينتقل (رأس المال الثقافى) بشكل محدد من خلال الأسرة والتعليم ويمكن إضفاء الطابع المؤسسي عليه من خلال أشكال المؤهلات التعليمية . ويعد رأس المال الثقافى بمثابة السبب الرئيس للحالة والموقع (الوضع) النسبى داخل الحقل الاجتماعى، ويمكن أن يوجد فى ثلاثة أشكال ، فى حالة مدمجة (معنويه) من خلال نظام دائم من الاستعدادات التى تمثل مجمل المؤهلات الفكرية ورأس المال البشرى من خلال عملية تضمين تعكس عمل مركز من التلقين والأستيعاب ، وبالتالى فإن عمليه إكتساب وإمتلاك هذا النمط من رأس المال الثقافى يتجسد فى شكل الأشياء المادية على سبيل المثال الكتب، اللوحات ، الأثار والادوات التى يمكن نقلها على حالتها الفيزيقية، و أخيراً يأخذ رأس المال الثقافى الشكل المؤسسى من خلال شهادة الكفاءة الثقافية ،على سبيل المثال التأهيل الأكاديمى الرسمى (الدبلومة) والتي يتم إقرارها اجتماعياً من قبل المؤسسة .

ويمثل (رأس المال الاجتماعى) وفقاً لبورديو مجموع العلاقات الاجتماعية للشخص، شبكة واحده من الموارد الفعلية والمحتملة والتى يمكن إضفاء الشرعية عليها من قبل الأسرة ، الجماعة، عضوية الطبقة والتى تسمح بالحصول على الموارد المادية والغير مادية . **وأخيراً** يرتبط مفهوم (رأس المال الرمزى) بالسمعة والتكريم والإعتراف، وهو ليس شكلاً مستقلاً بذاته من أشكال رأس المال، وإنما يتمثل فى الإعتراف وإقرار رأس المال من جانب مجمل المنافسين الأقران فى مجال محدد . وفى المجال الاجتماعى يتم تحويل رأس المال الاقتصادى والاجتماعى والثقافى لرأس مال رمزى حيث يشكل "قيمة يتم متابعتها والحفاظ عليها. إن عملية الاعتراف برأس المال الرمزى تعكس إفتراض النظام حول قيمة رأس المال ، والتى تعتمد على قواعد المجال حيث يعكس رأس المال الرمزى الإعتراف الخارجى والداخلى أى القيمة التى يوفرها النظام وعناصره الفاعله.

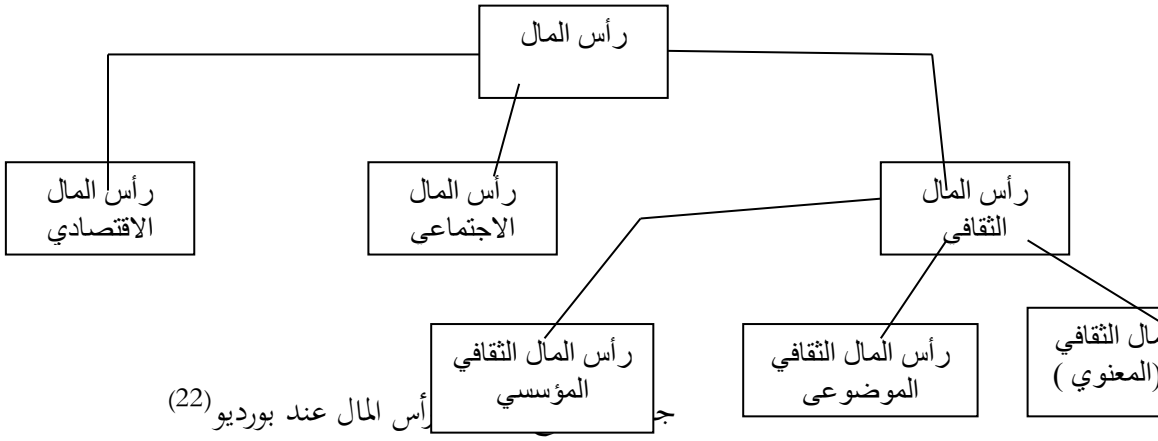

جـ أس المال عند بورديو[22]

وتأسيساً علي ما سبق نجد أن بورديو لا ينظر للفعل البشري انطلاقاً من مفهوم الهابيتوس وحده ، فهناك ما هو أكثر من الإستعدادات شكلت الفعل البشري في الماضي ، لقد وظف بورديو مفهومين إضافيين لاستكمال نموذجه في الممارسة وهما : رأس المال والمجال ، فدائماً ما تتطلب الاستعدادات الموارد ، والأفراد يكونوا مدفوعين بالموارد محل التقدير والاحترام أو ما يطلق عليه بورديو أشكال رأس المال لإحداث الممارسات .، حيث حدد بورديو أشكالاً مختلفة من الرساميل[الاقتصادي ، الاجتماعي ، الثقافي والرمزي] التى يتم توزيعها بشكل غير متساو عبر الطبقات الاجتماعية .ويتشكل الهابيتوس من خلال أنواع وقيم محددة من رأس المال ، وعلى سبيل المثال فالاستعدادات الجمالية لحب الفن في حد ذاته تظهر بشكل أكثر احتمالاً في الأسر التي يكون لديها رأس مال ثقافي كبير . فأنواع وحجم رأس المال إلي جانب الاستعدادات تعطي إمكانيات للفعل .

فالتوقعات الناتجة عن الهابيتوس تعتمد علي حيازة رأس المال سواء كان متوارثاً عن طريق العائلة أو متراكم من خلال المهنة. ففي المتوسط نجد أن من يملكون حيازة أكبر لرأس

المال يكون لديهم مخرجات أعلي من أولئك الذين يملكونه بصورة أقل ، فمن يملكون رأس مال اقتصادي كبير ورأس مال ثقافي أقل من غير المتوقع أن يطوروا توقعات ثقافية قوية دون تحويل بعض الموارد المالية إلي استثمارات ثقافية مثل التعليم العالي .

وهكذا تتشكل استعدادات الهابيتوس من خلال أنواع وقيم رأس المال المتاحة في الأسرة بالإضافة إلي مصادر القوي الأخري باعتبار الهابيتوس هو مولد الإستجابات في المواقف المختلفة. ولا يولد الهابيتوس الفعل في الفراغ الاجتماعي ولكن في سياقات اجتماعية منظمة والتي أطلق عليها بورديو كما سلف الذكر "المجالات ". فالمجالات أو الحقول تعُد بمثابة الساحات التنافسية للصراع علي الأنواع المختلفة من رأس المال ، حيث ينظر بورديو للمجتمع علي أنه تنظيم معقد من العديد من المجالات مثل المجال الاقتصادي ، الفني ، الديني ، القانوني والسياسي . فمفهوم المجال هنا يفترض أن المواقف الاجتماعية بمثابة فضاءات منظمة يتنافس فيها الفاعلون لحيازة الموارد ذات القيمة العالية. فالمجالات تقدم القيود والفرص بشكل مستقل للموارد التي يملكها الفاعلون في المواقف المختلفة. فالقوة الدافعة للهابيتوس تكون متضمنة بواسطة المجالات ، والقيود و الفرص التي تفرضها المجالات يتم تضمينها خلال استعدادات الهابيتوس .

فالمفاهيم المصاحبة لمفهوم الهابيتوس والتي طرحها بورديو كرأس المال والمجال تدخل ضمن نطاق عمل بورديو لأنها تشير إلي أن أفعال البشر لا تنبع من الهابيتوس بمفرده وعلي الرغم من أن العادات تعُد قوة دافعة للسلوك البشري وفقاً لبورديو إلا أنها ليست العامل الأوحد لذلك . لقد قدم بورديو نموذج متكامل حول الممارسات بوصفها علاقة معقدة بين الهابيتوس ، رأس المال والمجال ، فلا يمكن لهذه المفاهيم منفردة تقديم تفسير للسلوك البشري، ولكن يمكن أن يتم ذلك من خلال تقاطع المفاهيم الثلاثة [23].

أنتوني جيدنز (نظرية التشكيل البنائي) :

إن أحد أهم الأسئلة المطروحة في العلاقة بين (البنية والفعل) من جملة الأسئلة المطروحة في هذا الصدد هو : إلي أي حد نكون فاعلين بشريين ناشطين نتحكم في الشروط

والظروف التي تكتنف حياتنا الإنسانية ؟ أم الجانب الأغلب من نشاطنا هو نتيجة للقوي الاجتماعية العامة التي لا نمتلك السيطرة عليها ؟ إن هذه القضية ما زالت محط اهتمام وتجاذب بين علماء الاجتماع . إذ يشدد فيبر وبعده التفاعليون الرمزيون ، علي العنصر الإبتكاري النشط الخلاق للسلوك البشري . هذا فيما تؤكد مقاربات أخري كتلك التي وضعها دوركايم ، علي الطبيعة التقييدية للمؤثرات الاجتماعية علي أفعالنا .

إن إحدى الأطروحات الأساسية التي تقدم بها دوركايم وباحثون اجتماعيون آخرون خلال القرن الماضي ، هي أن المجتمعات التي نعيش فيها وننتسب إليها تفرض قيوداً وضغوطاً مجتمعية علي أفعالنا ، وكان دوركايم يري أن للمجتمع اليد العليا علي الإنسان الفرد، والمجتمع وأكبر وأهم وأضخم بكثير من مجموع الأفعال والتصرفات الفردية .

و لابد هنا من الإشارة إلي مدارس جديدة في الفكر النظري السوسيولوجي ومنها " أنتوني جدينز " حول الفجوة الظاهرة بين " البنية " و " الفعل " ويرى جيدنز أن من الضروري الإقرار بأننا نحن الذين ننشط في"صياغةالبنية الإجتماعية وإعادة صياغتها في أن معاً من خلال التفكير والسلوك البشري. أن المجتمعات الإنسانية في حالة مستمرة من (التشكل البنائي) (structuration) ، أي أنها كما يري جيدنز ، تبني وتُشكل من جديد كل لحظة كما في حالة البناء المعماري من جانب الطوب أو لبنات البناء التي شكلتها وكونتها قبل قليل ، أي بعبارة أخري من جانبنا نحن البشر . وتكون للجماعات والمجتمعات والمجموعات " بنية " واضحة المعالم طالما أن الناس يتصرفون وفق أنماط سلوكية منتظمة يمكن التكهن بها إلي حد بعيد. ولا يمكن في هذه الحالة أن يتحقق " الفعل " البشري إلا من خلال القدر الهائل مما نمتلكه من معرفة مبنية اجتماعياً [24].

وذهب جيدنز إلي تأكيد أهمية البدء من ممارسات الفاعلين الأفراد في حياتهم اليومية ودراسة الطريقة التي تتشكل بها هذه الممارسات في أبنية اجتماعية قابلة للتشكل والتحول المستمرين .

في هذه النظرية تتحول ممارسات الأفراد إلي ممارسات مفتوحة الأفق لاتحدها حدود القواعد البنائية الصامة ، بقدر ما تحدها حدود مكنة الأفراد وقدراتهم علي اختيار بدائل سلوكية وأنماط فعل تتلاءم مع أهدافهم (25).

وكانت أبرز إسهامات جيدنز في النظرية الاجتماعية ، ألا وهي نظرية التشكيل البنائي و محاولته التغلب علي الانقسام بين المقاربات السوسيولوجيبة ، التي تشدد علي العامل (Agency) وتلك التي تشدد علي القيود البنيوية ، وتركز الأولي علي عوامل الوعي الذاتي مقصوديتها ومعرفيتها وقدرتها علي بناء أو ابتكار أو صنع عالم اجتماعي تعيش فيه. وتضمنت هذه النظريات جوانب تأويلية وتفاعلية رمزية ونظرية انتخاب عقلاني

ويؤكد جيدنز في نظريته حول البناء ، أنه لا يمكن تجاوز ثنائية العامل – البناء إلا من خلال توليف وجهات نظر من مجموعة مختلفة من الاتجاهات ، ويرتبط ذلك بإعادة صياغة مفردات المفاهيم السوسيولوجية. وبالنسبة إلي جيدنز فإن التطبيقات النظرية السابقة لمفهوم " البناء " التي توجد أساساً في الوظيفية والماركسية كانت تهدف إلي تعريف البناء علي أنه علاقات اجتماعية منمطة ليست فقط مظهراً خارجياً للعامل البشري ولكنها تقيده أيضاً. ويمثل البناء والعامل وجهي العملة نفسها بالنسبة إلي جيدنز ويرتبطان من خلال الممارسات الاجتماعية وهما بعدان متلازمان لتدفق الأنشطة التي يشارك من خلال الأفراد في فترات حياتهم اليومية (26).

وترتكز نظرية التشكيل البنائي عند جيدنز علي أن المنظور الثنائي في علم الاجتماع مثل الفرد والمجتمع ، الموضوعي والذاتي ، والفعل والبناء يُعد غير مناسب وتقع التفسيرات الاجتماعية باستمرار في خطر التأكيد علي جانب واحد فقط من بين هذه الثنائيات. ويحاول جيدنز عمل مزيج يستند إلي نقاط القوة الكامنة في كل جانب من هذه الجوانب لتجاوز مثل هذه الثنائية ، فهو يدفعنا إلي دراسة كل من الفعل والبناء كمظاهر عامة للحياة الاجتماعية حيث تشارك معاً في جميع التفسيرات الاجتماعية .

يتعامل جيدنز مع الفعل والبناء (كوجهين لعملة واحدة) (حيث تكون البناءات وسيط للفعل ونتيجة ومحصلة له) وهو نموذج يستند إلي اللغة – (قواعد اللغة ومعاني

الكلمات والوسيلة التي نتحدث من خلالها) فعندما نتكلم نحن نبني جملاً ذات مغزي ، وبالمثل فإن قواعد وموارد البناءات الاجتماعية هي ما نعتمد عليه كفاعلين : فبنية كل من الفاعلين والبناءات لا تمثل مجموعتين مستقلين من الظواهر بل يمثلان ثنائية. والخصائص البنائية للنظم الاجتماعية تعد علي حد سواء وسيط ونتاج للممارسات المتكررة للفاعلين .

وترى وجهة النظر هذه البناء علي أنه ممكن ومقيد في الوقت ذاته. لقد أكد جيدنز علي الاعتماد المتبادل بين الفعل والبناء. ويستخدم مصطلح التشكل البنائي للإشارة إلي العمليات التي تصبح البناءات من خلالها متضمنة ومنظمة في المؤسسات والنظم الاجتماعية بشكل دائم ومستمر مثل الرأسمالية والدولة وما إلي ذلك[27] .

وينطوي أساس نظرية التشكل البنائي علي تحديد طبيعة العلاقة بين الأفراد والقوي الاجتماعية التي تؤثر عليهم . ويحاول جيدنز من خلال نظرية التشكل البنائي أن يعطي توزان بين الدور الذي يلعبه الفاعلون من خلال أختياراتهم الموقفية المحدودة وبين البناء الاجتماعي .

ويري جيدنز من خلال نظريته أن الناس ليس لديهم خيارات تامة وكاملة لأفعالهم بالإضافة إلي أن معارفهم مقيدة ومع ذلك تعتبر هي العناصر التي تُعيد هيكلة البناء الاجتماعي وتفرز التغير الاجتماعي .

وتقترح نظرية التشكل البنائي [كأي نظرية] اثنين من المكونات الفلسفية المحددة وهما الوجودي والمعرفي وينطوي الأول علي وجود بعض الظواهر. ويؤكد الثاني علي اكتشاف مفهوم للظاهرة والاعتراف بكل من مصادرها وأساسها وتعيين حدودها . لقد أولي جيدنز اهتماماً كبيراً لمحاولة إثبات وجود العلاقات الإزدواجية بين البناء والفعل من خلال تحديد أسبابها أو بالأحري ما يعزز وجود هذه العلاقة .

ويذهب جيدنز إلي أن البناء والفعل لايمكن فصلهما وأنهما متصلان ببعضهما البعض فيما وصفه جيدنز (ثنائية البناء) ويمثل البشر أو الفاعلون العناصر التي تمكن من إبداع وهيكلة البناء الاجتماعي عن طريق القيم والمعايير المعززة من خلال القبول الاجتماعي ، ومع ذلك فإن الناس مقيدون بالبناء الاجتماعي .

فالشخص لا يستطيع أن يختار أحد والديه أو في أي وقت يعيش . ويصف جيدنز البناء علي أنه يشير إلي مجموعة أنماط أو أشكال أو مجموعة من القواعد والموارد التي يتشارك فيها الفاعلون . فالقواعد هي التي تُقيد الأفعال في حين تسهلها وتيسرها الموارد. وعلي نفس الطريقة يميز جيدنز بين أنظمة التفاعل والبناءات، ويذهب إلي أن نظام التفاعل يعكس سمات وصفات بنائية علي الرغم من أنه ليس بناء في حد ذاته واحداً من أكثر الأمثلة المستخدمة علي نطاق واسع فنظام التفاعل هو الخطاب والذي يتم فيه فهم كلام المتحدث من قبل الجمهور إذا كانوا يفهمون اللغة (بناء) وتستخدم اللغات قواعد صارمة للتأكد من أن ما يتم التعبير عنه يفهمه المتلقي ،وهذا ما يقارن من خلال جيدنز عناصر البناء ، فمن خلال استخدام صوت الفاعل ومعرفة اللغة (البناء) هذا الخطاب (نظام التفاعل) يصبح مفهوماً ، لذلك يُعد التشكيل البنائي بمثابة عملية إعادة هيكلة الأنظمة ، حيث يوجد نظام التفاعل نتيجة لبناء اللغة المنطوقة ، هذه العلاقة التي أشار إليها جيدنز من خلال القواعد والموارد التي وضعتها البناءات وينشر وتُعيد إنتاج التفاعل الاجتماعي [28].

وانتهج جيدنز في طريقه نحو صياغة المفاهيم الوجودية لنظرية التشكل البنائي إلي بيان العلاقات المتبادلة فيما بينها ، والتي يمكن استيعابها بسهولة بمجرد النظر إليها في ضوء أهدافه العامة . لقد أراد جيدنز بناء نظرية اجتماعية وبناء مدخل لأسباب وعمليات وحركات التاريخ والمجتمع ، والذي يتجنب بدوره اثنين من المفاهيم الخاطئة والسائدة في الفكر الاجتماعي ، وهذين الفخين التي تحتاج النظرية الاجتماعية أن تحرر نفسها منهما هما : الموضوعية والذاتية حيث يضع الأول كل تركيزه واهتمامه علي القوي غير الذاتية والبناءات والتي تنظر إلي الفاعلين ليس أكثر من كونهم دمى تحركها النظم الاجتماعية ، والثانية (الذاتية) تقوم باختزال الحياة الاجتماعية كلياً في أنشطة الأفراد الفاعلين أو الجماعات من حيث (أفعالهم ، تفاعلاتهم ، أهدافهم ، رغباتهم ، تفسيراتهم ، وممارساتهم) ، حيث تستأصل الذاتية الفاعلين من سياقهم الاجتماعي والبناء وتعاملهم كأشخاص معزولين ، لقد أراد جيدنز أن يجد وسيلة لتجنب النزعة الإرادية المتضمنة في الذاتية والتعامل مع الأفراد كأدوات وأشياء المتضمن في الموضوعية من ناحية آخرى [29].

ويذهب جيدنز إلي أن "كل عملية للفعل إنتاج لشئ جديد (فعل جديد) ولكن كل فعل يوجد –في نفس الوقت– متصلاً بالماضي مما يهيئ سبل ظهوره.

وبذلك لا ينبغي فهم البناء بوصفه معوقاً للفعل ، بل بوصفه يسهم بصفة أساسية في إنتاج الفعل ويحدث ذلك في الوقت المحدد حتي في أكثر عمليات التغير الاجتماعي راديكالية شأنها في ذلك شأن أية عمليات أخري " .

وكل فاعل اجتماعي يعرف معرفة جيدة شروط إعادة إنتاج المجتمع الذي يكون عضواً فيه ويوضح كيفيستو هذه القضية بقوله : " نظرية التشكيل البنائي هي محاولة لتجاوز الثنائية التي يراها وباء أصاب النظريات الأخري، تلك الثنائية التي تضفي أهمية إما علي الفاعلين أو الأبنية الاجتماعية ، فالأبنية يبدعها الإنسان ولكنها بدورها تكبح الفعل الإنساني وتجعله ممكناً " .

ومن هنا يحاول جيدنز أن يعيد الفرد إلي النظرية الاجتماعية. وقد أطلق علي نظريته " البيان غير الوظيفي " حيث يزعم أن أية نظرية تعالج الأنساق الاجتماعية بوصفها غاية في حد ذاتها تعد نظرية لا أساس لها من الصحة. ويضيف أنه حاول أن يلبس الفاعل غطاء جديداً دون السقوط في هاوية النزعة الذاتية أو النزعة اللاموضوعية. ولمناقشة وجود كل من الفاعل والمفعول به – الفرد والنسق – يؤكد جيدنز علي الطبيعة الارتدادية الجوهرية للحياة الاجتماعية والتساند المتبادل بين البناء والفعل والارتداد الذاتي هو تغذية مرتدة أو اهتمام واع بالمخرجات أو النتائج .وهنا يتساءل الباحث :

- هل بالفعل لدي كل فاعل في المجتمع وعي بشروط إعادة الإنتاج فيه ؟
- هل لدينا جميعاً نفس الاهتمام الواعي بالارتداد الذاتي ؟

ويري جيدنز أن الوظيفة البنائية عادة ما تتعامل مع البناء بوصفه كاسحاً للحرية أو متعارضاً معها ما دام أنه يقوم علي الاتفاق أو الاجتماع علي القواعد والمعايير التي تكبح الأفراد ومع أن جيدبنز غالي في الطبيعة الكابحة للنظام في الوظيفة إلا أنه أراد التأكيد علي النظام لا بوصفه معوقاً للفعل ولكنه بوصفه في حالة تغلغل مع الفاعل أي بوصفه مزيجاً من الحرية والكبح .

ولإيجاز كثير من النقاط الأساسية في نظرية التشكيل البنائي كما عبر عنها جيدنز في مصادر متعددة نجد أنه أكد علي ما يلي :

(1) الفعل الإنساني أو الفاعل الرشيد/القادر علي اتخاذ القرار .

(2) الانعكاسية وهي ليست مجرد الوعي الذاتي فحسب ، ولكنها أيضاً الأسلوب الضابط للفيض المستمر للحياة الاجتماعية .

(3) البناء أو المحصلة التي يعاد تشكيلها باستمرار لكل من القواعد والموارد والفعل[30].

ونظراً لأن نظرية التشكيل البنائية تعزو لأفعال الممارسة دوراً مركزياً في صياغة الحياة الاجتماعية ، فإنها تنازع في المصداقية الأنطولوجية للانقسام العميق بين التقاليد الجمعية وأنصار النزعة الفردية في الفكر الاجتماعي. فعلي العكس من أصحاب التقاليد الجمعية Collectivist تتعامل نظرية التشكيل البنائية مع أنماط وخصائص الجماعات الاجتماعية باعتبارها حقائق منتجة من خلال الممارسات المنتظمة ، بدلاً من كونها حقائق قائمة بذاتها Suigeneris أو ذات طبيعة خاصة بتعبير دوركايم. ومن ناحية أخري وعلي العكس من تفسيرات أنصار النزعة الفردية ، فإنها تتعامل مع ممارسة الأفعال باعتبارها سياقاً سابقاً في وجوده منطقياً علي الاهتمام باختيارات الفاعل أو تفسيره للممارسات الاجتماعية ويترتب علي ذلك أن الوقائع المتشابهة علي نطاق واسع للممارسات المستدمجة من قبل الفاعلين قد يعاد إنتاجها من خلال أفعال العديد من الفاعلين المختلفين عبر الزمان لعدة أجيال ، كما يترتب عليه أيضاً حاجة الفاعلين ألا يدركوا (علي الرغم من أنهم قد يدركون) أن ممارستهم للفعل تعد بمثابة عملية إعادة إنتاج للممارسات الراسخة أو تغيير فيها. ولعل هذه النقطة تحديداً هي التي طرح الباحث حولها التساؤل المتعلق بوعي الفاعلين بعملية إعادة الإنتاج .

وينهض تحليل البني أو البناءات الاجتماعية علي المزاوجة بين مستويين ، الأول مستوي الحياة اليومية وما تزخر به من ممارسات ،و الثانى هو مستوي الأطر البنائية الأكثر ثباتاً . ويؤكد جيدنز في غير موضع من كتاباته علي أن تغاير مواقف الحياة اليومي والشخصية ، لا ينفصل عن التطور البعيد المدي للنظم الاجتماعية والبناءات الاجتماعية ، فتبادل الكلام

بين فاعلين (أي استخدام اللغة) يجعل المتكلمين ينخرطون في التاريخ الطويل للغة فهم إذ يمارسون اللغة فإنهم يساهمون في إعادة إنتاج اللغة .

في هذا المثال البسيط نجد أن الحياة اليومية بما تزخر به من ممارسات تشكل صورة تحتية للبناء وهي مستمرة عبر الزمن مثلما التاريخ .ونجد من ناحية أخري أن الطريقة التي تتشكل بها الحياة اليومية تسهم في استمرار الصورة العليا للبناء الاجتماعي القواعد والموارد. ويتشابه هذا التحليل مع مفهوم كل من برودل Braudel وشوتز shutz عن الاستمرار الطويل الأمد للحياة الاجتماعية (31) .

ويقول جيدنز لقد وضعت في مؤلفاتى منظوراً نظرياً حول التغيرات التي تكتنف عالمنا المعاصر إننا نعيش اليوم في " عالم منفلت تحف به المخاطر التي تحدث عنها أولريج بك غير أن علينا أن نضيف مفهوم " الثقة " إلي جانب " المخاطر " وهي الآمال التي نعقدها علي الأفراد والمؤسسات في مجتمعاتنا الحديثة[وقد أخذ عنصر الثقة هذا بالاندثار مع جملة التحولات المتسارعة في مجتمعاتنا المحلية وتزايد مظاهر العولمة في حياتنا المعاصرة]، وتعني الثقة أن نعقد الأمل علي " أنساق مجردة " لا نعرفها معرفة وثيقة ، ولكنها تؤثر تأثيراً مباشراً في حياتنا ، مثل المصانع التي تنتج غذائنا ، والأجهزة التي تقوم بتنقية المياه التي نشربها ، أو البنوك التي نودع فيها أموالنا ، وحيث إن الثقة والمخاطرة ترتبطان ارتباطاً وثيقاً ، فإن علينا أن نكن الثقة بمنظومة واسعة من الهيئات التي تؤثر في حياتنا ونستطيع مواجهة ما يمكن أن نصادفه من مخاطر. إن معيشتنا في عصر المعلومات الحالي تعني زيادة في مستوي " الانعكاسية الاجتماعية" . ويشير هذا المفهوم إلي أننا نقوم علي الدوام بالتفكير في الظروف التي تكتنف حياتنا وفي تأملها والتمعن فيها ، بما في ذلك أنماط السلوك والممارسات والأفكار التي نزاولها أو نحملها في حياتنا اليومية، وتظل لدينا في جميع الأحوال القدرة علي التغيير والتعديل علي الصعيدين الفردي والجماعي. ويعني ذلك أننا لم نفقد بعد سيطرتنا علي المستقبل (32).

بين بورديو وجيدنز :

ارتكز فكر بورديو علي تقديم منظور ابستمولوجي لمعالجة الاشكالية القائمة بين ثنائية (الموضوعي–الذاتي) وكانا يريا أن هناك مبالغة في تأكيد المدارس الانثروبولوجية المتمثلة في الوظيفية , البنائية الوظيفية والبنياوية علي الجانب الموضوعي من البنية الاجتماعية والنظام الاجتماعي وذلك ضمن مساعيهم نحو إدراك أفضل للعالم الاجتماعي. وقد كان هذا الاهتمام سببا في جعل الجانب الموضوعي يأتي علي حساب إدراك ما هو ذاتي. وعليه رأي بورديو أن من الضروري إقامه قدر من التوازن المطلوب بين الجانب الذاتي , المتمثل هنا في الفرد أو الفاعل الاجتماعي ، والجانب الموضوعي . إن كلا من بورديو وجيدنز يستنبطان نظرية الفعل والنظريات البنائية ولكن لكل منهما طريقته في اعادة تركيب القضايا النظرية . وقد يبدو بورديو أكثر واقعيه من جيدنز الذي يمنح الفاعل قدرة مبالغ فيها , لذا تجد جيدنز متطرفا نوعا ما في صياغة النظرية إذ جعل مجال (البنية والفعل) لا يتعدى الفرد– الفاعل .فالبنية هنا موجودة على مستوى الفرد كما أن الفعل هو فعل الفاعل لا غير، وأن هذه البنية / القاعدة تخلق الفعل كما أن الفعل يخلق البنية في كل لحظة ممارسة يقوم بها الفرد لذلك يقول جيدنز بأن البنية و الفعل في حالة من البناء والتشكيل لا تنفك أن تنتهي وتبدأ جولة جديدة لهذا البناء والتشكيل .

أما بورديو فهو لم يغفل تأثير عوامل أخرى خارجه عن الخصائص الذاتية للفرد، ويرى أن لها دخل فى تشكيل بنيته وبالتالي ممارسته الاجتماعية باعتبار أن هناك تأثيرات بنيوية على كل حال. وفلسفه بورديو هذه معقدة للغاية فهو لم يقفل أبواب التفكير وإنما جعل الفضاء مفتوحا للاستنباط والاجتهاد والتفكير بالعوامل والمؤثرات العديدة ضمن المجال الاجتماعي الذي يعمل فيه الفرد .أما جيدنز فإن البنية والفعل عنده يحصلان على مستوى الفرد /الفاعل فحسب

ولكن الباحث كما يعتقد :أن البنية والفعل يوجدان أيضا على مستوى البنيه الاجتماعيه الخارجيه أى الخارجه عن الفرد عند بورديو وهنا يختلف بورديو عن جيدنز فى هذه النقطة المهمة للغاية لأنها تختصر آراء هذين العالمين بشكل واضح .

أن جيدنز وبورديو يعترفان بأهمية الفعل في تشكيل البنية الاجتماعية كما يعترفان أيضا بدور البنية الاجتماعية فى تغيير شكل الأفعال والممارسات عندما تنتقل هذه البنية لطور أخر من أطوار تطورها ,بسبب تحولات بنائية لا علاقة لها بالأفعال والممارسات ، ولكن –وهذه نقطة هامة – لكل منهما وجهة نظر فى القوة النسبية التي يمتلكها الفعل أو التى يمتلكها البناء الاجتماعى بكل مؤسساته. والقارئ لأراء بورديو وجيدنز سوف يقتبس منهما ضابطه تظهر تارة وتختفي أخرى حول الحتمية السوسيولوجية التي تعتقد بالصياغة الوظيفية ولكن على مستويات مختلفة (33) .

ومن وجهة نظر الباحث فإن بورديو تجاوز من خلال طرحه لنظرية الممارسة بعض الثنائيات الآخرى بالاضافة إلى ثنائية (الفعل – البناء) ، فمن خلال طرحه لمفهوم رأس المال ورفضه التسليم بالرؤية الكلاسيكية التى قدمها كارل ماركس حول نفس المفهوم نجد أنه تجاوز ثنائية العوامل (المادية – اللامادية) فى التفسير. لقد طرح بورديو مجموعة من الأشكال المختلفة لرأس المال مثل : الاجتماعى ، الثقافى ، السياسى ، الرمزى بالاضافة إلى رأس المال الاقتصادى بمفهومه الكلاسيكى متجاوزا بذلك إشكالية نظرية آخرى سيطرت على العديد من المنظرين ومحدثا نوعا من التوازن (الذى يراه الباحث منطقيا) بين تأثير العوامل المادية واللامادية على ممارسات أفراد المجتمع ، وهناك ثنائية آخري تجاوزها بورديو فى طرحه لمفهوم الحقل او المجال وهى ثنائية (الاجماع – الصراع) فعلى الرغم من تأكيده الدائم على أن هناك مجموعة من القواعد والتى أطلق عليها (قواعد اللعبة) تحكم عمل أى مجال من مجالات المجتمع على اختلافها وأن ثمة شبه اتفاق (إجماع) بين أعضاء المجال عليها، إلا أنه المح فى كثير من الأحيان إلى إمكانية وجود نوع من (التنافس والصراع) بين أعضاء المجال الواحد الجدد والقدامى على حيازة القوة بداخله من ناحية وبين المجال وغيره من المجالات الآخرى من ناحية ثانية .

(33) يحي خير الله عودة . نظرية التشكيل البنائي عند أنتوني جيدنز : رفض الرؤية الأحادية للتفسير ، مجلة كلية الآداب ،الجامعة المستنصرية ، الإصدار 59 ، 2012 ، ص . ص 12 : 13 في : / 2017 / www. b Sociology . com blog – post _ 487 . htm .

---

[1]([1]) عبدالله محمد عبدالرحمن . النظرية في علم الاجتماع : النظرية الكلاسيكية الإسكندرية ، مطبعة البحيرة ، 2010 ، ص ص 19 – 20 .

([2]) Doyle . P. Johnson . Contemporary Sociological Theory New York , Springer , 2008 , p. 13 .

([3]) بيرت . ن . آدمز ، د. أ. سيدي . المدارس الفكرية المعاصرة في علم الاجتماع (ترجمة) مصطفي خلف عبدالجواد ، المنيا ، مطبعة جانجو ، 2011 ، ص 31.

([4]) عبدالله محمد عبدالرحمن ، مرجع سابق ، ص 124 .

([5]) المرجع السابق ، ص 173 .

([6]) السيد عبدالعاطي ، آخرون . نظرية علم الاجتماع : الاتجاهات الحديثة والمعاصرة ، الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، 2002 ، ص 51 .

([7]) بيرت . ن . آدمز ، ر . أ . سيدي . المدارس الفكرية المعاصرة في علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص 43 .

([8]) المرجع السابق ، ص ص 49 – 50 .

([9]) محمود عبدالرشيد بدران . النظرية الكلاسيكية وتفسير السلوك الإنساني ، المنيا ، 2014 ، ص 148 .

([10]) السيد عبدالعاطي وآخرون . مرجع سابق ، ص 85 .

([11]) إسماعيل علي سعد . الاتجاهات الحديثة في علم الاجتماع ، الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، 2000 ، ص ص 17– 18 .

([12])عبدالله محمد عبدالرحمن . النظرية في علم الاجتماع : النظرية السوسيولوجية المعاصرة ، الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، 2005 ، ص 172 .

([13]) السيد عبدالعاطي وآخرون . مرجع سابق ، ص ص 370 –371 .

([14]) عبدالعزيز بن علي الغريب . نظريات علم الاجتماع : تصنفياتها ، اتجاهاتها وبعض نماذجها التطبيقية من النظرية الوضعية إلي ما بعد الحداثة ، الرياض ، دار الزهراء ، 2012 ، ص 462 .

([15]) المرجع السابق ، ص 482 .

([16]) Bernhard Wagner and Kenneth McLaughlin . Politicising the psychology of social class : The relevance at Pierre Bouedieu's habitus for psychological research , theory and psychology vol. 25 (2) , SAGE , 2015 , pp. 200 - 207 .

([17]) Bret Chandler . The subjectivity of habitus , Journal of theory social behavior , 3 : 4 , John Wiley an Sons Ltd , 2013 , pp. 69 – 472 .

([18]) . Walthre M. repatriation to France and Germany : a comparative study based on bourdieu's theory of practice , Springer , 2014

([19]) بيربورديو . مسائل في علم الاجتماع ، ترجمة : هناء صبحي ، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة (كلمة) ، أبو ظبي ، 2012م ، ص ص 181– 185 .

([20])Alan Swingwood . A short history at sociological thought , Macmillan press , third edition , 2000 , p. 213 .

([21]) Richard L. Costa . The logic of practice in Pierre Bourdieu , current sociology , vol. 5 & (6) , SAGE , London , 2000 , p. 77 .

([22]) Walther M. Op.cit.,

([23]) David Swertz . The sociology of Habit : The perspective of Pierre Bourdieu , the Occupational therapy Journal of research , vol. 22 , 2002 , pp. 65- 66 .

([24]) أنتوني جيدنز ، علم الاجتماع (مع مدخلات عربية) ، ترجمة وتقديم ، فايد الصياغ ، بيروت ، المنظمة العربية للترجمة ، الطبعة الرابعة ، 2005 ، ص ص 702 – 703 .

([25]) أنتوني جيدنز ، مقدمة نقدية في علم الاجتماع ، ترجمة : محمد الجوهري وآخرون ، القاهرة ، مركز البحوث الاجتماعية ، كلية الآداب جامعة القاهرة ، 2002 ، ص 10– 11 .

([26]) جون سكوت (تحرير) ، خمسون عالماً اجتماعياً أساسياً المنظرون المعاصرون ، ترجمة : محمود محمد حلمي ، بيروت ، الشيكة العربية للأبحاث والنشر ، الطبعة الثانية ، 2013 ، ص ص 224 – 229 .

([27]) Paul Bagguley . Reflexivity Contra Structuration , the Canadian Journal of Sociology , vol. 28 , No. 2, 2003 , p. 136 .

([28]) Mukunda Lansal . The structuration Approach of Anthony Giddens , Himalayan Journal of Sociology & anthropology , vol. v., 2010 , P. 113.

([29]) Rab Stones . Structuration Theory , Palgrave Macmillam , New York , 2005 , p.p.13-14 .

([30]) بيرت آدمز ، أ. ر. سيدي . المدارس الفكرية المعاصرة في علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ص 111–112 .

([31]) أنتوني جيدنز ، قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع : نقد إيجابي للاتجاهات التفسيرية في علم الاجتماع ، ترجمة : محمد محيي الدين ، القاهرة ، المجلس الأعلي للثقافة المشروع القومي للترجمة ، 2000 ، ص ص 29– 30 .

([32]) أنتوني جيدنز ، علم الاجتماع (مع مدخلات عربية) ، مرجع سابق ، ص ص 730– 731 .